محمد النقاش

لبنـان على بركان

فيما كانت الاذاعة اللبنانية تتغنى بانسانية لبنان ومسيرتـه الحضارية على مر الازمان ، فصيدا وزجلا ومزيفات جبرانيه ، كـان الوحش اللبناني ملك الشوارع والضواحي في بيروت العاصمة ، وبضعه انحاء من القطر العربي الجميل ، يصول ويجول ويعترف من اجرام التقتيل والتنكيل والتمثيل بالجثث ما ندر ان عرفت مثله افذر الحروب الهمجيـة عبر التاريـخ ...

ولم يدم ذلك على امتداد يوم او يومين . بل طوال اشهـر ، على وجه التحديد من ١٣ نيسان ١٩٧٥ حتى الاسبوع الاول من تشرين الثاني ـ في ثماني جولات صمدت في العنف والضراوة ، ونخللتها مهادنـات رجراجة هشة ، نرجـو ان لا تكـون احداهـا هذه التي نعيشها ونحن نكتب هذه السطور . « اطلقوا النار على كل ما يتحرك ..» هذا هـو الامر الذي سمعه اكثر من مراسل اجنبي ينطلق من افواه فئدة ميليشيا الكتائب لقناصتهم . وكم من بريء كان « يتحرك » ماشيـا في الشارع ذاهبا الى عمله او عائدا الى بيته، وقع في المصيدة وسقط على الارض جثة بلا حراك ..

اما من نجا ،فكان في انتظاره احيانا متراس وراءه مسلحـون يسألونه ابراز اوراق هويته . ويا ويله ان كان فلسطينيا او سوريـا او مصريا او عربيا من حيثما كان اولبنانيا من طائفة معينة ، فحظه يفلـق الصخر ان خرج حيا من التجربة ، ولم يصب الا بعدد لا بأس به من الرضوض والكدمـات ..

وكانت الصواريخ وقذائف الهاون والقنابل المحرقة تلقى في الليل على بيوت الآمنين والمتاجر والمكاتب اضعاف اضعاف ما تلقـى علـى المسلحين . وفي احدى الغارات على سوق تجارية ، انهار فندقمتواضع علىمن فيه من النزلاء ، وعددهم ستون ، فقتلوا او جرحوا جميعا .

وشاءت الصدفة ـ صدفة لعلها خير من ميعاد ـ ان يحمل هذا الفندق لافتة كتب عليها « الفندق العربي »..

كانت حربا بشعة فذرة بالفعل . خلت بمجملها من ابسط مبادىء الفروسيـة . فالقنص ببندقية ذات منظار ، تقتل على مسافة الفمتر، كان من مميزاتها . وهذا السلاح الحاد البصر ، الرائع التصويب ،تحول في حوادث لبنان الى سلاح اعمى طائش ، لانه كان يستهدف بوجه عام السابلة من الابرياء والعزل . هل نذكر حكاية ذلك القناص الذي شوهد على سطح مبنى في اثناء الحرب الاهلية الاسبانية عام ١٩٣٦ ، يطلق النار في جميع الاتجاهات . ولما حوصر واعتقل وسئل عن الفريق الذي ينتمي اليه . اجاب : « انا احارب لحسابي الخاص ... » هل نذكـر ان هذه الحكاية جرت مجرى الامثال ، وامست لندرتها وظرافتهـا « نكتـة عالميـة » ؟ . لقد امست النكتة في لبنان هي القاعدة .

ما الذي حل بلبنان..ما الذي اصاب هذا الشعب الوادع فحوّله او حول بعضه الى ذئاب ؟

انهمنا الكتائب اعلاه نقلا عن مراسلين اجانب هم من الغرب ،اي من اصدقاء لبنان التقليديين . وهي ستحق « شرف » الامتياز لانهـا كانت البادئة . لكن الحرب الفذرة عمت الجميع فيمـا بعد ، طبعـا بنسب متفاوتة . بعد ان ما نستطيع تاكيده هـو ان الرواة من وطنيين واجانب لم يسهدوا على حزب لبناني تقدمي او على منظمـات المقاومـة الفلسطينيه باعمال القنص مثلا ، ولا بحيازة اهبيـة وفرق للتعذيب ، وان حوادث الخطف والقتل التي رد بهـا خصـوم الكتائب وحلفائهـا كان معظمها ـ ان لم نقل كلها ـ على ايدي جماعات مرتجلة او افراد ، كذلك الفلسطيني الذي ما ان بلغهفي صور نبـأ قتل شقيقه عند حاجز في بلدة الدامور حتى احتجز اول خمسة اشخاص التقى بهم ، ممـن ينتسبون بالدين الى من اغتالوا شقيقه وافرغ فيهم رصاص رشاشه . نعم وقعت حوادث فردية من هذا القبيل في المعسكر المعـادي للكتائب وانصارهـا ، لكنهـا على فظاعتهـا تبقى اقل بشاعـة وفظاعة مما قـد تدبره جماعـة سياسية منتظمة في حزب ، يفرض فيها ادنى قدر مـن الاحترام للمبادىء والقيم ، وان اسوأ مـا يتبادر الى الذهن ان يكون الترويع والتفظيع خطة مدروسة ـ وليسا مجرد انفعال طارىء ـ غايتها الوصول الى انجاز سياسي ـ كالتقسيم مثلا ـ على غرار « دير ياسين » الصهيونيـة .

نعود فنتساءل : ماذا جنى لبنان ، وماذا جنى اللبنانيون حتـى استحقوا هذه العاصفة من الجنون .. هذا البركان البشري المتفجـر غضبا وحقدا وقتلا ودمارا ؟ اربعة الاف قتيل كمـا تقـول الاحصاءات الاوليـة .. وعشرة الاف جريح او معطب . عـدا الخسائر والاضرار الاقتصادية والمادية التي قدرهـا العارفون بحوالي اربعـة مليارات ليرة لبنانية ، اي اربعة اخماس الدخل القومي في عام واحد .. عدا مـا تدمر من اخلاق وانهار من قيم وانبعث من رواسب عند شعب واحـد قدره ان يتعايش . لان شطره محال ، سواء على الصعيد الجغرافي او الديموغرافي او التاريخي . ما الذي جنى لبنان حتى نزلت به الكارثة؟

الرئيس كرامـي قـال : انـه غضب من اللـه . وهذا خيـر تفسير او ايسر تفسيـر . لكاني بروما ـ لبنـان بلغت الاوج فـي بذخها وترفها واسترخائهـا ولا مبالاتهـا ، فاحترقـت بنـار شهواتهـا .. كم فرح لبنان بانه ظل وحده الناجي السعيد من لهيـب المنطقـة ، بعيدا عـن « مشاكلها وهمومها واختـلاجاتها وحروبها ، يشاركهـا بالعاطفـة واللسان والقلم ،وكفى الله اللبنانيين شر القتال .. والله لا يحب الاكتفاء بهذه المشاركـة على مـا يظهر . افترى لبنان لو اشترك مع الاشقاء في السراء والضراء .. لو انه حارب في حـدود ممكناته .. اما كان ذلك اجدى عليهواوفر ممـا وقع فيه ؟ « لربما كانت خسائره الماديـة في الحرب تجاوزت قليـلا ما خسره في حربه علـى نفسه » ، لكنه كـان دون شك قد ربحمـا لا يقدر وما لا يحصى بمعمودية

حقيقية بنار طهور ، تشد وحدته وتعزز قيمه الوطنية والانسانية وتزوده بامجاد فعلية لا بد منها لكل شعب ينشد مكانا كريما تحت الشمس .

***

بعد حمدنا الله الذي بلانا بشيء من الخوف ونقص في الثمرات .. كما يبلو سائر عباده ، تعالوا نر ماذا فعل الانسان في لبنان حتى اصابه ما اصابه .

لقد كانت وكالات الانباء ومحطات الاذاعة العالمية تحار في وصف الحرب التي وقعت في بلدنا . وهي على حق في ان تحار ، فهل هي بين اللبنانيين والمقاومة الفلسطينية .. ام هي اهلية سيما بين اللبنانيين انفسهم ، وان كانت كذلك فهل هي حرب طائفية اي بين المسيحيين والمسلمين ، ام طبقية اي بين اليسار واليمين؟

الواقع انها كانت كل هذا في وقت واحد ، وعلى الاقل ، بالنسبة الى من اثاروها ووسعوا نطاقها فشنوها بلا هوادة ولا فروسية . فحزب الكتائب طائفي النشاة والتركيب ، متنكر للعروبة داخل حدود لبنان ، حذر من ارتفاع موجها وتعاظم قوتها من حول لبنان ، يميني النزعة ، فاشي الاساليب لا سيما في « ميليشياه » . وهو على عكس ما يدعي به زعماؤه احيانا من تصريحات تخديرية ، معاد للكثرة المسلمة في لبنان لانها عربية الشعور والانتماء والهدف . معاد للتقدميين من اية طائفة كانوا ، مؤيد لبقاء النظام القائم وتحجيره الى الابد . معاد للوجود الفلسطيني ، على الاخص بعد ان تحول كثير من اللاجئين الفلسطينيين على ارضه الى مجاهدين مسلحين وفدائيين .

وهكذا يستطيع القاريء استنتاج هوية الفريق الاخر . ذلك الفريق الذي ان لم تجمعه وحدة الهدف ، فقد جمعه حزب الكتائب وانصاره لدفاع مشروع عن النفس . بمعنى ان الجماهير الاسلامية الموالية للقومية العربية من جهة ، والمغبونة الصفقة في النظام الطائفي القائم من جهة ثانية لان موقعها منه هو موقع الاقلية مع انها في الحقيقة والواقع الاكثرية ، ثم اليسار معتدلا ومتطرفا من مختلف الطوائف ، الطامح الى تطوير النظام وجعله تقدميا ما امكن ، ثم المقاومة الفلسطينية ، كل هؤلاء رأوا انفسهم مجتمعين تلقائيا في حلف واحد .

وينبغي التوكيد في موضوعية صارخة ان العامل الطائفي له دوره في كل ما يتعلق بلبنان او يجري فيه ، انما تجب الاشارة ايضا اي ان هذا العامل ليس دينيا اومذهبيا صرفا ، وان الاتجاهات القومية والاهداف السياسية تداخله بشكل يكاد يكون طاغيا . فالتعصب الديني بمعناه المطلق ليس بالقوة التي قد يتصورها من يعيش خارج لبنان . وذلك لان الطائفتين الكبريين عندنا تدينان بدينين سماويين توحيديين . وليس بينهما ما بين المسلمين والهندوس في الهند مثلا . ولا حتى ما بين الكاثوليك والبروتستانت ، مثلا اخر ، لانه لم ينشق المسلمون عن المسيحية او العكس . وعلى صعيد التعامل الشخصي واليومي ، قلما تجد تمييزا وتفريقا بين المسلم والنصراني . ومرد ذلك الى تاريخ طويل من التعايش . ولا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان للمسلمين ـ لا سيما العرب ـ يدا في ذلك . فالفاتحون والحاكمون لهذه المنطقة قرونا طويلة لم ينظروا الى المسيحيين ـ وحتى اليهود ـ نظرتهم الى اعداء ، ولا حاولوا يوما ابادتهم كما فعل غيرهم في اسبانيا ومالطة حيث قضوا على كل مسلم بعد استعادتهما من ايدي العرب المسلمين . وهناك شواهد تاريخية على ان النصارى الشرقيين (الارثوذكس) حاربوا جنبا لجنب مع المسلمين في وجه الزحف الصليبي الاوروبي .

وغني عن البيان ان الفضل في ذلك هو لمجيء الاسلام بعد المسيحية ، واعتباره المسيحيين اهل كتاب لا « كفارا » كالوثنيين ، تحل ذبائحهم للاكل ويحل الزواج من بناتهم . زد على ذلك نصا صريحا في آية قرآنية تعتبر النصارى اقرب الناس مودة الى المسلمين .

وبديهي ان مسيحيي الشرق بوجه عام قدروا معاملة المسلمين فاتحين وحكاما ، وعدم مضايقتهم في اعتناق عقيدتهم وممارسة شعائرها ، فقابلوا الجميل بمثله . وتعاونوا مع المسلمين في شتى حقول النشاط الانساني . وساعد على ذلك في بعض الاحوال اصل عربي واحد او استعراب عن طيب خاطر .

ولئن اهتزت الصورة بعض الشيء في ظل الحكم التركي ، لعدم تفقه كل الاتراك بلغة القرآن ، فان هذا الحكم على الرغم من اصطدامه العنيف الطويل باوروبا المسيحية ، وممارسته نوعا من الاضطهاد على العناصر المسيحية ، فانه لم ينحدر الى شن حملة ابادة جماعية عليها.

ان الحس الطائفي في لبنان ، طالما ساورته السياسة . لا سيما بعد ارتفاع المد الاستعماري الاوروبي ، خصوصا بالنسبة الى الطوائف الكاثوليكية التي تتبع كنيسة روما ، وابرز هذه الطوائف واقواها وانشطها واكثرها تناسلا في الجبال الطائفة المارونية . وقد كانت هذه الطائفة عن طريق الاكليروس على اتصال دائم بروما وبفرنسا ام الكثلكة في العالم .

ولا عجب ان امتدت الرابطة الروحية بينها وبين الغرب الاوروبي الى حقلي الثقافة والسياسة . وجاءت حرب ١٨٦٠ التي وقفت فيها فرنسا الى جانب الموارنة توثق عرى الصداقة ، وجاء الانتداب الفرنسي بين عامي ١٩١٨ و١٩٤٣ يرفع هذه الصداقة الى درجة التآخي . وتخلل ذلك غيوم مصدرها فرنسا التي كانت مضطرة بحكم علاقاتها مع العالم العربي الاسلامي في شمال افريقيا وفي سوريا الى سلوك طرق تعكر مزاج الراديكاليين من الموارنة او تستثير سخطهم .

وللقاريء ان يقدر مدى التضحية التي اقدمت عليها الطائفة المارونية اولا ومعظم المسيحيين في لبنان ممن اثرت فيهم سنوات الانتداب الفرنسي ثقافيا وسياسيا ، على قبول الاستقلال عام ١٩٤٣ ، مهما بدا له الامر مدهشا . فاي شعب يرفض الاستقلال ثم يساوم عليه ويضع شروطا لقبوله ؟ لكن هذا بالفعل ما حدث . ونتيجة المساومة كانت ما يسمى « الميثاق الوطني » غير المكتوب . ومؤداه ان يتخلى المسيحيون عن حماية فرنسا لقاء تخلي المسلمين عن الانضمام الى سوريا ، وان يحتفظ الاولون ببعض الامتيازات كان يعتبروا اكثرية بنسبة ٦ الى ٥ بمعزل عن اي احصاء ، ويفوزوا بالمقاعد النيابية والمناصب والوظائف على اساس هذه النسبة .

وقد يزول استغرابك ـ او يزداد .. ـ حين تعلم ان الاستقلال في مفهوم كثرة المسيحيين اللبنانيين وعلى رأسهم الموارنة (اذ كان بينهم طبعا قلة تؤمن بالعروبة او تألفها وترفض كل حماية اجنبية) كان الاستقلال اولا عن سوريا ، وبالتالي عن بقية العرب . وعيد استقلالهم هو اول ايلول ١٩٢٠ الذي اعلن فيه استقلال « لبنان الكبير » في ظل الحماية الفرنسية ، اي ضم الساحل اللبناني والاقضية الاربعة في الداخل (وهي مناطق معظم سكانها من المسلمين) الى لبنان الصغير الذي منح عام ١٨٦٤ استقلالا ذاتيا تحميه سبع دول أوروبية في نطاق السلطنة العثمانية .

وكثيرون يعتقدون انه ما كان هناك لزوم للتنازلات الاسلامية ، لان الاستقلال كان شيئا مقررا لا مفر منه ، بارادة لندن وجيشها الثامن المحتل لبنان ومعه فصائل فرنسية ديغولية تابعة لقيادته . ومشهورة نادرة المغفور له حبيب ابو شهلا (وهو من زعماء الارثوذكس وابطال الاستقلال) اذ قال ذات يوم في مجلس خاص :

ـ كفاكم كلاما عن الاستقلال وابطال الاستقلال .. فالاستقلال

فرض علينا فرضا كالانتداب تماما . وكل ما امزنا به نحن انحاسة الشم كانت عندنا اقوى مما هي عند سوانا ..

المهم ان الاستقلال ، انتزاعا او فرضا او بالمفاوضة ، قد تحقق . ودخل لبنان بتحفظ او بغير تحفظ جامعة الدول العربية بعد ان اشترك في وضع ميثاقها بالاسكندرية عام ١٩٤٥ . لكنه الى جانب ذلك ، احتفظ بجميع موروثات الاستعمار : الدستور (الذي لم يحذف منه الا المواد المتعلقه مباشرة بسلطات الانتداب) وهو دستور له مظهر دستور الجمهوريه الفرنسيه الثالثه ، ومخبر ديكتاتوري يحصر جميع السلطات التنفيذية في رئيس الجمهورية دون مسؤولية ، ولا يعطي رئيس الوزراء من الصلاحيات الا التوقيع على المراسيم مع تحميلـه مسؤولية كل ما يعمل امام البرلمان . والموروث الثاني هو الجيش الذي كان يتألف بطبيعة الحال من ضباط مسيحيين بكثرتهم الساحقة لان المسلمين كانوا بوجه عام يقفون من الانتداب الفرنسي موقف السلبية ، وهذا الجيش اللبناني .. لم يكن الا تبعا وامتدادا لجيش الاحتلال في الشرق ، اي في سوريا ولبنان .

وما ان انقضت بضعه اعوام على الاستقلال ، تميزت اكثر ما تميزت بعمليات فساد في اجهزة الدوله ، (وكان من الاعذار لتبرير هذه العمليات ان « الضروره الوطنيه » تقضي بها محذرة من تخويف من قبلوا الاستقلال على مضض ..) حتى بدأ الصراع حينا في العلن واحيانا في الخفاء بين الانعزاليين وانصار العروبه . واشترك بعض زعماء الاقطاع والبورجوازية من المسلمين في لعبه الانعزاليين ، دائما من اجل تثبيت قلوبهم وتعويدهم على الطمأنينة في ظل الاستقلال ... وكانت الهديه الاولى فصم الوحدة الاقتصادية والجمركيه مع سوريا ، تلك الوحده التي لم يفصمها الانتداب نفسه .

ويجب الاعتراف ان انصار العروبة من الكثرة الاسلامية ابدوا كثيرا من التسامح في التنازلات . فعدا قبولهم بالعرف رئاسة مارونيه للجمهوريه وقيادة مارونيه للجيش كامر واقع لا محيد عنه ، قبلوا بان يظل يوم الاحد يوم عطله اسبوعية ، وان تبقى اللغه الفرنسيه طاغية على لغة البلاد في البرامج التعليميه ، وان يكون شعار جمعية الاسعاف الدولية « صليبا احمر » بدلا من صليب يحدق به هلال كما اقترح بعضهم .. الى جانب ارتضائهم ان يكونوا رسميا « الاقلية » وهم في الواقع الاكثرية . كان كل همهم ان يستقيم سير لبنان العربي ، وان يندمج لبنان ما امكن في الاسرة العربية . وكان لهم ما ارادوا الى حد كبير من هذه الناحية . فلبنان في سياسته الخارجية منسجم مع المجموعة العربية . وهم قابلون بما يصيبهم من غبن في توزيع مكاسب الحكم من جاه ونفوذ ومال (المال على اساس ما يوفره النفوذ الحكومي من ابواب رزق في الدولة وسائر المؤسسات والحقول .. ولا نقصد المال الاخر ..) وعزاؤهم ان العروبة بخير في لبنان . وان لبنان سائر في الركب لا يفكر بمد اليد الى اجنبي قد يصطاد في مياهنا التي عكرتها اسرائيل وعكرها نفر من حكام العرب برجعيتهم وانانيتهم .

لا اريد ان اخلع صفة المثالية على مسلمي لبنان . فهم كسائر البشر لهم حقوق ومطالب يحرصون على احرازها . وكانوا يتذمرون بين الفينة والفينة ، لكنهم ما كانوا يذهبون الى حد الثورة . كانت الثورة في نظرهم وقفا على الشأن الاستقلالي والشيء العربي . اما الثورة للمطالب والحقوق ففي وسعها الانتظار ، ولا بد ان يأتي يومها اذا لم تسو الامور بالتي هي احسن .

لقد ثاروا مرة واحدة عام ١٩٥٨ . وكانت ثورتهم على انحراف رئيس الجمهورية حينذاك الاستاذ كميل شمعون . ثورة على رغبته في اشراك لبنان بحلف بغداد ، اي باعادة النفوذ الغربي الى المنطقة بعد ان طرده الرئيس عبدالناصر من ضفاف النيل . وطارده على امتداد الوطن العربي الكبير كله . وهددوا بالثورة مرة واحدة عندما قامت مؤامرة على الجامعة العربية التي انشأها عبدالناصر فرعا لجامعة الاسكندرية في بيروت ، وفتح فيها معهدا لتدريس الحقوق باللغة العربية . ونجحوا في المرتين ، فسقط الرئيس شمعون وسقط حلف بغداد بثورة عارف وقاسم التي استغلت احسن استغلال ثورة لبنان للاطاحة بالملكية واسقاط نوري السعيد .

وفي المرتين وقفت الكتائب وحلفاؤها موقفا معاديا . في ثورة ١٩٥٨ وحين تأكد نجاحها ، حولتها « ميليشيا » الكتائب الى معركة طائفيه مائه في المائة ، ونجحت في تسميم الموقف ، فنادى المنادي بوجوب وقف الفتنة الدهماء ، ووقفت الكتائب وانصارها الى ما عرف بصيغة « لا غالب ولا مغلوب » كيلا يحس الفريق العربي في لبنان (وهو كثره المسلمين وبعض المسيحيين) بانه انتصر وحده ، وتفتح امامه طريق التسلق الى اهداف اخرى ..

وفي حادث الجامعه العربية (او معهد الحقوق فيها) اضرب المحامون وهم بكثرتهم من الانعزاليين تسعة اشهر لاغلاقها ولم يفلحوا . ولعلها كانت اول مرة في تاريخ الثقافة والحضارة ، يضرب فيها عن العمل جماعة من المثقفين طوال هذه المدة للحيلولة دون فتح دار للعلم .

وهذه الحادثه تعطي القارىء فكره عن جموح العاطفه السياسية وجنوحها الى التخريب ، عندما تستبد بأناس يزعمون انهم الفريق المتطور الراقي في البلد ، ثم يبذلون المستحيل كي لا يتطور ويرقى الفريق الاخر .

وهي مع سابقة الكتائب في ثورة ١٩٥٨ تفصح عن عقلية الانعزاليين المتآمرة المحتكره التي تجلت في احداث لبنان الاخيرة .

★★★

اذن ، خلال ثلاثين سنة من الاستقلال كانت كرة ثلج الطائفية المسمومة لا تنفك تتدحرج على الرقعة اللبنانية ، وتضخم مكاسب جديدة على صعيد النفوذ والثراء معا ، وعلى حساب الفريق الاخر مناطق وافرادا . وتأخذ تحت ابطها بالطبع نفرا من هذا الفريق تغطية للعبتها . وتحت ستار النظام الاقتصادي الحر ، ازدهرت حرية السرقة والاحتيال والرشوة بشكل قل نظيره ، ووصل الفساد الى دوائر واجهزة يفرض فيها ان تكون فوق الشبهات .

وكانت الطبقة المستفيدة لا تبالي ، ولا تنظر الى ما يجري حولها ، من ثورات شعبية وانتفاضات اشتراكية . ولا تحسب حسابا للاجيال الطالعة من طلبة وعمال ومثقفين من كل الطوائف في طموحها الى التغيير بالاصلاح او بالثورة .

وكان الضمير الشعبي اللبناني الطامح الى حكم سوي عصري ، يتسم بالنزاهة والوطنية والعدالة ، قد بدأ يتململ ويتحرك . وكان لا مفر من اصطدام داخلي بين القدامى والجدد ، بين المتخمين والمحرومين ، بين الانعزاليين والعروبيين ، بين الاكثرية الحقيقية والاكثرية الوهمية ، سواء وجد الفلسطينيون على ارض لبنان او لم يوجدوا . لكن وجود الفلسطينيين بعد تحولهم الى مكافحين ، عجل اوان الانفجار . وكان المفجرون — ويا لعجب المتناقضات — هم اهل الجاه والغنى . فكأنهم ارادوا ان يسبقوا العاصفة ، ويقضوا عليها قبل هبوبها ..

لا تستغرب اذا قلت لك ان انصار العروبة في لبنان يفوقون في حماستهم لها وذوبانهم في حبها كل انصارها حيثما كانوا من الرقعة العربية ، ربما باستثناء عرب فلسطين المحتلة . لان هؤلاء هم الاشد معاناة من ظلم اعدائها ومذليها . لكن عروبيي لبنان يقاسون ايضا من ذوي القربى ، من اناس يؤمنون بانهم اخوة لهم في القومية والوطن ، ويجدون انفسهم مضطرين في كل لحظة لليقظة والسهر . خشية الكمائن والاشراك .. وكأني بهم في حرب دائمة مع « الاخوة

الالداء » ، حرب يربحون فيها جولات وقد يخسرون جولات . لكن من فضائل كل صراع انه يرسخ الايمان بالعقيدة ، ويشدد العزائم لبلوغ الهدف ، ويفني الروح بالانتصار .

والفلسطينيون عند انصار العروبة في لبنان ، هم الولد المدلل، سواء يوم كانوا مشردين لاجئين ، او يوم اصبحوا ابطال كفاح وفداء . وهم كذلكواكثر عند اليساريين منهم ، لان اليسار هو الحق والعدل والانسانية . فمن آذى الفلسطيني ، فقد آذى كثرة الشعب اللبنانيوطعنه في اعز من يحب .

والفريق الانعزالي ، سواء كان في الحكم او خارجه ، لم يرقه ان يتعاظم بأس الفلسطينيين المقيمين على ارضه . ولعله استاء اكثر ما استاء من التلاحم الذي قام بينهم وبين انصار العروبة واليساريين عامة من اللبنانيين . وكأني بخيالهم المريض صور لهم اشياء لم تجل يوما في خواطر الفلسطينيين وهم اصحاب قضية ولهم حلم واحد هو العودة الى ارضهم وديارهم ، ولا نريد ان نزعم او نصدق ان همسا من خارج صور لهم هذه الاشياء . كل ما حدث ان الفريق الانعزالي راح يضيق ذرعا بالوجود الفلسطيني، مدعيا انه خطر على السيادة اللبنانية . ونسوا ان هذه السيادة لا تتأثر باخ قذفته الى دارك اقدار ظالمة ، وهو يضع روحه على كفه في كل لحظة بغية قهر هذه الظروف وعودة عشيرته من حيث أتت ، الى جوار مقدساته ورحاب مزارعه وبساتينه . ولئن صورت من بعض العشيرة اعمال مبعثها المغالاة في الحيطة والحذر ، فلا يضيرك ذلك ، بل تتغاضى وتغفر وتغفر . اما وبساتينه . ولئن صدرت من بعض العشيرة اعمال مبعثها المغالاة في وارتضيت ان تكون شرطيا لأمنه ، وخادما لآربه .

والواقع ان السلطة حاولت غير مرة ان « تؤدب » المقاومة الفلسطينية ، فوجدت في وجهها المقاومة والجماهير اللبنانية . مما دفعها أخيرا الى التسليم بارادة الشعب .

وحدث ان تكلم رئيس الجمهورية اللبنانية نفسه على منبر الامم المتحدة باسمه وباسم تسعةعشرة دولة شقيقة . مدافعا عن حق الشعب الفلسطيني ، وعن نضاله العادل .

واعتقد الجميع بعد هذا الموقف وهذه الشهادة امام العالم باسره ، ان البحث بالوجود الفلسطيني في لبنان قد انتهى الى غير رجعة . لكن ما كاد ينقضي على خطاب الرئيس اشهر . بل اسابيع ، حتى راح الشيخ بيار الجميل رئيس حزب الكتائب ، يثير مشكلة هذا الوجود ، ومسألة السيادة ، مع التشديد طبعا على ان الكتائبتنصر الحق الفلسطيني وتحيي الكفاح الفلسطيني . وليس عندها ما هو اغلى من « القضية .. الفلسطينية ..»

وبعد اسابيع ،بل ايام ،كانت سيارة ركاب كبيرة تقل عددا من الفلسطينيين العزل ـ وبينهم شيوخ ونساء ـ العائدين من مهرجان الى مخيمهم في الطرف الاخر من المدينة ، مارة بشارع تجمع فيه الكتائبيون المسلحون لان مرافق زعيمهم الشيخ بيار الجميل اغتيلهناك على ايدي مجهولين ، فاعترضوا السيارة وانهالوا على ركابهابالرشاشات فقتلوا منهم سبعة وعشرين ونجا اثنان او ثلاثة باعجوبة بعد اصابتهم بجروح ..

وكانتهذه الفاجعة المروعة بداية للحوادث التي امتدت فيما بعد ودامت سبعة اشهر .

ابى رئيس الوزراء آنذاك الاستاذ رشيد الصلح ، وهو وزير الداخلية في الوقت نفسه ،ان يستدعي الجيش للمساهمة في اقرار الامن والنظام . وذلك لانه انزل الجيش قبل اسبوع لقمع تظاهرة في مدينة صيدا قام بها الصيادون احتجاجا على تأسيس شركة لصيد السمك بالوسائل الحديثة مطالبين بتامين رزقهم ، فقتل الجيش خمسة عشر من الصيادين والمتظاهرين معهم ، وفقد هو خمسة جنود. كما اصيب النائب السابق معروف سعد (وهو زعيم شعبي يساري) اصابة خطرة نقل على اثرها الى المستشفى ، حيث فارقته الحياة بعد ايام . وكان وزير الداخلية الرئيس الصلح حين علم ببدء الاشتباك بين الجيش والمتظاهرين قد طلب الى الجيش الانسحاب ، فلم يصدع بأمره ، وادى ذلك الى استقالة احد الوزراء السيد مالك سلام احتجاجا على عدم اكتراث الجيش بسلطة الحكومة . وقامت في اليوم التالي مظاهرة كبرى استنكارا لموقف قادة الجيش، سارت في العاصمة المضربة . وبعد يومين دعا الكتائبيون في احيائهم الى تظاهرة مضادة حيث الجيش وقادتهوهتفت لهم . واعتبر المسلمون ان قيام هذه التظاهرة هو دليل على انحياز الجيش وطبعه بطابع مسيحي .

فلما وقع حادث السيارة الفاجع ، ابى الرئيس رشيد الصلح استدعاء الجيش الى الساحة ، خشية ان يتفاقم الموقف وان يحدث انقسام في صفوف الجند .

وهكذا ترك المتقاتلون وحدهم في الساحة . لان قوى الامن الداخلي لا تملك الوسائل الكافية لمكافحتهم ، لا سيما وانهم في كلا المعسكرين ، يستخدمون اسلحة حربية قوية .

وبين مطالبة فريق الكتائب وحلفائها بنزول الجيش ، واصرار رئيس الحكومة على عدم انزاله ، ووقوف السلطة العليا الى جانب الفريق الاول ، استقال الاستاذ رشيد الصلح بعد ان القى في البرلمان بيانا اعتبر الرصاصة الاولى المسددة مباشرة الى صدر النظام القائم ، فجراه من ثيابه وكشف كل عوراته وقد فعل ذلك بالاتفاق مع الفريق الاسلامي ـ التقدمي .

ذلك ان هذا الفريق ادرك اخيرا ان امانيه القومية ـ وليست مصالحه المحلية ـ هي المهددة تحت مظلة النظام الدستوري القائم . وقرر لاول مرة ان يطرح مطالبه السياسية لتقويم الموج وتأمين التوازن والعدل في مؤسسات الدولة . وطالب التقدميون والمسلمون (الغاء بالسنة مشايخهم) بالغاء الطائفية السياسية واقامة حكم ديمقراطي سليم .

ولم يعد الوجود الفلسطيني جوهر المشكلة .بل الخلاف بينفريق من اللبنانيين انفسهم . مع التنويه طبعا بان مطالب الفريق التقدمي تكفل سلامة الوجود الفلسطيني دون لبس ولا عائق .

المعركة هي معركة نظام الحكم فهل تحل بالسلاح ام بالحوار ؟

رئيس الحكومة الحالي الذي حملته الى منصبه موجة شعبية من الفريق التقدمي الذي يؤلف ٧٥ في المائة من السكان كما يقدر الزعيم التقدميالاستاذ كمال جنبلاط ، يؤمن بالحوار . وهو يبذل من صبره وحنكته ما لا يتصوره العقل في سبيل اعتماد السلاح واعتماد الحوار. والفريق التقدمي يؤيده في ذلك ، مع استعداده للحرب لمن يريد الحرب .

ومن اغرب المفارقات في هذه المعركة ان الفريق اليميني الممثل في حزب الكتائب وحزب الوطنيين الاحرار (وزعيمه كميل شمعون) وجيش التحرير في زغرتا (بلدة رئيس الجمهورية) وحراس الارزة الخ .الخ. نقول ان هذا الفريق الناعم بخيرات النظام الحالي وامتيازاته،الحريص على بقائه وخلوده .. هو الذي بدأ « الثورة » في الشارع ، وهوالذي يضرب مرافق البلاد ويحطم وحدته واقتصاده . بينما الفريق الناقم الثائر على النظام هو الذي يراعي جانب الاعتدال ، ويريد انقاذ البلد من المحنة باسرع ما يمكن . وهذا ما يدعو الى القول ان الطائفيين والمستغلين الذين كانوا سادة النظام القائم طوال ثلاثين سنة ، قد افلسوا في سلمهم ، وهم يفلسون اليوم في حربهم !